فقه الهجرة في زمن الاستضعاف

أ.د. محمود توفيق(*)

لما قص سيدنا رسول الله ما كان معه في غار حراء في أول تنزل الوحي عليه على ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى، قال لسيدنا رسول الله ﷺ: «ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك»، فدهش رسول الله ﷺ مما سمع، فقال: «أَوَمُخرجيَّ هم»، قال ورقة: «نعم، لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا»(1)(2).

دهش سيدنا رسول الله ﷺ من أن يكون ذلك موقف قومه منه، وهو الذي كان المثل الأعلى في الصدق والأمانة والرحمة والرأفة بهم، أيعقل أن يقابلوا دعوته إلى الحق بأقسى ما يكون: «إخراجه من وطنه»؟ فدل ذلك على أن هذا أمرٌ لا يقع إلا ممن تجاوزوا حدود الآدمية في مجابهتهم خصمهم، فكأنهم على سنن قوم لوطٍ : ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٨٢) ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(النمل: ٥٦).

جعلوا التطهر علة المطاردة من وطنهم، وتلك هي المؤذنة أنهم قد بلغوا في السفاهة والحمق مبلغًا لم يستشعروا معه ما هم فيه غارقون.

وقد كان الذي أخبر به ورقة وتحقق، فدل قوله هذا على أنها سنة أهل الباطل؛ مطاردة خصومهم، وإرغامهم على أن يفروا بدينهم، وما معهم من الحق، ولو أنهم استبقوهم، وأجروا معهم حوارًا يكون فيه للعقل والحكمة

(*) عضو هيئة كبار العلماء

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري رقم: (٦٩٨٢)، ومسلم رقم: (١٦٠).

(2) اصطفى ﷺ هذا التركيب: «أَوَمخْرِجيّ هم» وكان يُمكنُ عربيّة أن يقول: «أيخرجني قومي؟» أوَ «أمخرجيّ» لكنَّه ﷺ آثر ما جاء به النّصّ لما تطويه «الواو» العاطفة قوله: «مخرجِيّ »عليْه في سياق الاستفهام المازج بين معناه الحقيقي والدهش والاسْتغراب طوت «الواو» قبلها كلامًا طيّه أفصحُ من ذكره؛ لأنّه أمرٌ لا تَطيقُ النَّفس النّبوّية أن تصرّح به، لشدة ثقله وإيلامِه، وكأنه من شدتِه عظم عليه أن يتحرك به لسانُه ﷺ، فهو ممَّا لا يتوقع أن يكون، واكتفى بأن يصرح بالمعطوف، علي الرَّغم من أنّ هذا المعطوف المصرَّح به: «مخرجيّ» من أشدّ ما يكون، فكيف بالذي طُوي، ولم يطق اللسان التّصريح به؟ هذه العبارة «أَومخرجيّ» في هذا السياق المتوتر المتأزم تفيضُ بالمعاني المؤلِمة التي تعتلج في قلبه ﷺ وهو الّذي لم يرِ قومه منه إلا عظيمًا لم ترِه من غيره قطّ أهكذا تنقلب الأحوالُ والمواقف؟ أهكذا يفعلُ الباطلُ فَي أهلِه؟ إنّه لأمرٌ جللٌ لا يُطاق!

يجملُ بك طالب علم أَن تفيءَ إلى ما أسداه إليْنا شيخُنا – العلامة أ.د. محمد أبًو موسى– أعزّه الله تعالى– في شرحِه هذا الحديث في سِفرِه (شرح أحاديث من صحيح البخاريّ) (نشر مكتبة وهبة– القاهرة).





سلطانٌ لكان ذلك هو الأمجد الأحمد الأليق بهم، ولكن استشعار أهل الباطل في كل زمانٍ أن سلوكهم سبيل المحاورة والمجادلة مع خصومهم لن يفضي إلا إلى انكسار ما هم فيه أمام ما مع خصومهم، فإذا رأيت قومًا يطاردون خصومهم ويخرجونهم من ديارهم، فاعلمن علم يقينٍ أنهم يوقنون بتهافت ما معهم أمام ما مع خصومهم.

كانت الهجرة في عهد رسول الله ﷺ طلبًا لتحقيق دولة لهذا الدين الحق، وطلبًا لرجالٍ قوامين عليه رعايةً وحماية ودعوةً بلسان الحال ولسان المقال، وليس طلبًا لراحةٍ ومتاعٍ، بل مرحلة إعداد تدخل في فريضة الإعداد لمناصرة الحق على الباطل بالحق، فلم يستنصر ﷺ بمن ليسوا على حقه من غير قومه، وكان بملكه أن يفعلها وأن يهادن الفرس أو الروم؛ ليستقوي بهم على كفار مكة، لكنه ﷺ لم يفعل ذلك، فما يكون لحق أن يستنصر بباطل، فليست الغايات في الإسلام مسوغةً للوسائل، فمن استنصر للحق بالباطل لم يدم له استنصاره، بل الباطل الذي استنصر به، سيستحيل خصيمًا له طامعًا فيه، وهو الذي تراه عينك في قومك حين استنصروا للحق بالباطل، واستعدوا الكافرين على المسلمين، وقد قالها رسول الله ﷺ: «إنا لا نستعين بمشركٍ»[3].

الهجرة النبوية كانت مرحلة إعداد لدولةٍ، وتكوين رجالٍ للدعوة، فلا يكون لغير أهل هذا

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، عن عائشة رضي الله عنها، رقم: (٢٧٣٢).

الدين منةٌ عليهم يعيرون بها على نحو ما سمعت ورأيت في زمانك القريب.

فلما مَنَّ الله على رسوله والذين آمنوا معه بفتح مكة التي هاجروا منها بدينهم رعايةً وحمايةً له حتى يقووا على التصدي للباطل وأهله، قال سيدنا رسول الله ﷺ للأمة جمعاء إلى قيام الساعة: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونيةٌ، وإذا استنفرتم فانفروا»[4][5].

صاغ هديه ﷺ في أسلوب قصر جاعلًا الجهاد والنية الصالحة المستحيلة إلى عملٍ صالحٍ مُصلحٍ هما الطريق إلى نصرة الإسلام وتحقيق السلام: سلام العزة والمنعة والقيومية، لا سلام المعاهدات التي تُعطي أهل الباطل أكثر مما تأخذ للحق.

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٥ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٥، ٣٦).

فهدى بذلك إلى أن سبيل الهجرة فرارًا بالدين من وطن الإسلام قد انتهى، إلا إذا كان ذلك طلبًا لما يحقق للحق والخير القيومية في وطنه.



(٤) متفق عليه؛ أخرجه البخاري برقم: (٢٧٨٣)، ومسلم برقم: (١٣٥٣).

(٥) العلماء على أن الهجرة من دار الحربِ إلى دار الإسلام أو السَّلام باقيةٌ إلى قيام الساعة وفق مقتضيات الأحوال، وهذا لا يكونُ إلّا عن علمٍ صحيحٍ وصريحٍ وحكمة، أمّا الهجرةُ من دار الإسلام إلى دار الكفرِ استنصارًا بأهله، فذلك ما لا يقدم عليه مسْلمٌ فاقِهٌ دينَه.

وقرر لهم أن الذي بقي لهم من بعد فتح مكة إنما هو «الجهاد» بكل ما تتسع له هذه الكلمة «الجهاد» من معانٍ متجددةٍ غفل عنها كثيرٌ من المسلمين في زماننا، وحصرتها ثلةٌ في القتال بالسيف، وهو آخر مراحل الجهاد، وأضيقها ميدانًا، ولكن ثلةً من شباب الأمة الذين لم يستكملوا فقه دينهم على النحو الذي يجب عليهم، ولم يستشيروا أعيان حكماء أهل العلم بالكتاب والسنة والحياة، فتجاوزوا كل مراحل الجهاد وصوره، وأقحموا أنفسهم في أضيق صوره على غير عُدَّةٍ سوى حماسٍ ملتهبٍ وحمية متأججةٍ، ورغبةٍ جموح لنصرة الحق والعدل، ودحر الظلم، فلم تثبت أقدامهم فيما أقحموا أنفسهم فيه غير مستعدين، وغير فاقهين، وغير مطيعين قول الله: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال: ٦٠) فوقعوا في أشد مما كانوا فيه من قبل من «الاستضعاف» ولو أنهم صبروا حتى يستكملوا العدة لكان خيرًا لهم وللأمة.

وكان حقًّا على المستضعفين أن يحسنوا فقه قول رسول الله ﷺ: «ولكن جهادٌ ونيةٌ، وإذا استنفرتم، فانفروا» ثلاث كلمات فقهها ضرورةٌ من ضرورات القيام بعبادة نصر الحق بالحق احتسابًا، هذه الثلاثة تمثل هجرة المستضعفين.

قلت: إن «الجهاد» في الإسلام ذو صور ومجالاتٍ أوسع من مجال القتال بالسيف مواجهةً لأهل الباطل والشر، فكل عملٍ صالحٍ مصلحٍ يحقق لأهل الحق عزتهم ومنعتهم إتقانه علمًا وحكمةً وممارسةً هو من الجهاد في سبيل الله تعالى نصرةً للحق بالحق.

وقوله ﷺ: «ونيةٌ» لا يُراد قصرها على العمل القلبي، مع سكون الجوارح واستكانتها، كلَّا، لا قيمة للنية الصالحة إلا بإحالتها إلى عملٍ صالحٍ مصلحٍ فتي يذكو، ولا يخبو.

ولا يفهم مما نسب إلى رسول الله ﷺ على ضعفٍ في سنده: «نية المؤمن خيرٌ من عمله»[6] أنه يكفيك أن تنوي الخير ونصرة الحق بالحق صادقًا في نيتك، ثم تضطجع تاركًا غيرك يفعل، كلَّا، هذا يقيم صاحبه في محيط قول الله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف: ٣).

ولا يُفهم من قول رسول الله ﷺ: «إن الدال على الخير كفاعله»[7] أنه يكفيك أن تدل على الخير ولا تصنعه، وأنت على صنعه وإتقانه ونشره مقتدرٌ، فهذا ضلالٌ مبينٌ في الفهم، وإلا أصبحت الأمة كلها دالةً على الخير غير فاعلةٍ له، فتهلك، هذا الذي قاله ﷺ لمن كان غير قادرٍ على أن يفعل؛ فهو بيانٌ عامٌّ أريد به الخاص.

(٦) المعجم الكبير للطبراني، عن سهل بن سعد الساعدي، رقم: (٥٩٤٢).
(٧) سنن الترمذي، عن أنس بن مالك، رقم: (٢٨٨٣).

وقوله: «استنفرتم فانفروا» أي: استنفرتم إلى عمل صالح اقتضاه حال الأمة، فحق عليكم أن تنفروا، فذلك هو الجهاد النافع للأمة، فحال الأمة هو الذي يعين لنا ما نهاجر إليه نحققه، لنحقق للأمة عزها ومنعتها وقيوميتها على سائر الأمم، فإنها خلقت لتكون أمةً رائدةً، تقود، ولا تُقاد، تُعطي ولا تمنع، وتستجدى خيراتها وحضارتها، ولا تستجدي هي من أحدٍ، فإن من هدي النبوة قوله ﷺ: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة»[٨]، وهذا ليس حكمًا مقصورًا على الأفراد، بل هو شاملٌ الأمة، فالأمة المنفقة المعطية المتعففة خيرٌ من الأمة السائلة المستجدية المقترضة، وهذا لا يكون إلا بأن يعمل أبناؤها وينتجوا الخير، ويكفوا عن السرف وإنفاق المال في غير ما ضرورة أو حاجةٍ لا تستقيم الحياة بدونها، فإن الترف مفسدةٌ للأمة ومذلةٌ لها ومفض بها إلى أن تكون في الأمم مستضعفة.

(٨) متفق عليه، البخاري رقم: (١٤٢٩)، ومسلم، رقم: (١٠٣٣).

وحق على الأمة وعلى ولاة أمرها ألا تنفق أموال بيت المسلمين في غير ما يحقق لهم عزتهم ومنعتهم وريادتهم في الأمم الأخرى؛ روى الإمام أحمد في مسنده عن معقل بن يسارٍ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استرعى رعيةً، فلم يحطهم بنصيحةٍ لم يجد ريح الجنة، وريحها يوجد من مسيرة مئة عامٍ»[٩].

جمعة القول: الهجرة في زمن الاستضعاف منطلقها الانتقال من حال الاستخذاء النفسي إلى علو الهمة، ثم إلى فتوة العزم المؤسس على صفاء القصد والاعتماد على الحق ، ثم العلم بمجالات الارتحال، ثم العلم بمناهج وأدوات التحقيق وإتقانه وديموميته، ثم العمل على امتلاك ذلك كله وحسن استثماره والقيومية عليه رعاية وحماية احتسابًا لمرضاة الله ، والله هو الهادي إلى سواء السبيل، هداية إبانةٍ وإعانةٍ، والحمد لله رب العالمين.

(٩) رقم: (٢٠٣١٥).

